آداب الزيارة

وواجبات الضيافة

للكاتبة الاجتماعية زينب محمد حسين

لست أبالغ إذا قلت إن الشرق مشهور بالكرم ، والضيافة والتزاور نوعان من أنواع الكرم الشرقي ، حتى أن الضيافة كانت إلى خمسين سنة خلت تحتل جانبا كبيرا من ميزانية الأسرة ، ويحسب لها أول حساب ، وكان في كل بيت من البيوت الكبيرة جناح مخصص للضيوف يسمى " المضيفة " ، وكانت المضيفة مفتوحة دائما لكل طارق سواء أكان من معارف رب البيت أو من الغرباء ، وقد عانت أسر كثيرة من جراء الضيافة وما كانت تقتضيه من نفقات باهظة ينساق اليها الناس في غمرة المظاهر الكاذبة .

لذلك وقبل أن أخوض في هذا الموضوع فان أول ما أنصح به أرباب البيوت ورباتها ، هو الاعتدال في الأنفاق على هذه المظاهر ، فليس من العدل أن نرهق أنفسنا ماديا على حساب مستقبلنا ومستقبل أولادنا ، وليس من الضروري أن نستقبل الزوار ونضيفهم لنضيق على أنفسنا . وحديثي الآن عن آداب الزيارة وواجبات الضيافة إنما أعني به الذين لا يجدون في استقبال الضيوف عنتا أو إرهاقا لميزانيتهم ، فمصلحة الأسرة فوق كل شيء . ولقد أعجبتني صيحة لأحد الكتاب منذ أعوام طالب فيها بحذف الصالون من جهاز العروس لأنه يكلف مالا كثيرا ، ووجوده يحتم استقبال الزوار ، وفي استقبال الزوار نفقات لا موجب لها ، وفي معرفة الناس شر نحن في غنى عنه ، وكلما قلت معارف المرء وأصدقائه ، ارتاح وأراح .

فمما يؤسف له أننا بالرغم من تقدمنا الظاهر في مختلف نواحي الحياة ، ما زلنا في حاجة إلى من يرشدنا إلى آداب الزيارة أو واجبات الضيافة ، وقد لاحظت على الكثيرين ، وبينهم المتعلم والمثقف تثقيفا عاليا ، جهلا شنيعا بتلك الواجبات ، التي هي في الواقع من أبسط الأمور .

ومن أبرز دلائل الاخلال بآداب الزيارة أن يفاجئك صديق بزيارة في الساعة السادسة صباحا قبل أن تستيقظ من نومك ، أو في الساعة الثانية بعد الظهر حيث أنت في أشد الحاجة إلى الراحة بعد عناء العمل ، أو أن يفاجئك بزيارة حيث تكون منهمكا في عملك ، فيأخذ من وقتك ما أنت في حاجة اليه لانجازه ، ويضطرك إلى سماع ما قد يخدش مكانك عند رؤسائك ، أو ما قد يربك سير عملك .

هذا فى الحقيقة نوع من المضايقة لا داعى له غير عدم اللياقة، ولذا كان من الواجب ألا نفاجئ الناس فى دورهم أو مكان عملهم بغير ارتباط سابق . وقد لا تتم الزيارة فى كثير من الأحيان إذ لا يجد الزائر المفاجئ من يقصدهم بالزيارة . ويعجبنى البيت الانجليزى الراقى الذى لا يسمح باستقبال أى فرد سواء أكان صديقا أو قريبا بدون موعد سابق إلا فى الأحوال الشاذة ، ويخصص الانجليز يوما يختارونه كل أسبوع لاستقبال الأصدقاء ، والويل كل الويل لمن يخالف هذا التقليد فيعرض نفسه لتهمة قلة الذوق، بل وأكثر من هذا يحرم عليه ولوج المجتمعات الراقية .

فإذا اجتهدنا أن نحدد يوما من كل أسبوع لاستقبال أصدقائنا — الذين نختارهم من صفوة الأقارب وخلّص المعارف — فيتحتم علينا إذن أن نجعل الوقت الذى يقضيه هؤلاء الأصدقاء عندنا ، وقتا طيبا ينعمون فيه بالضيافة الكريمة ، ويتمتعون بما يدخل السرور على نفوسهم ويحببنا إليهم .

ولربة البيت الحكيمة شخصية لها أثرها العظيم فى نفوس زوارها ، فالواجب أن تبدو سيدة البيت رزينة فى أقوالها ، وأفعالها ، فلا تسرد شؤونها الداخلية على مسامع الضيوف أو تتبرم أمامهم بالحياة العائلية والمسئولية البيتية ، فمن الجائز أن يكون بين الحاضرين فتى أو فتاة مقبلين على إنشاء أسرة جديدة ، فيدخل ذلك اليأس إلى نفسيهما ويثبط ذلك من عزيمتهما ، كما أنه لا يصح لنا أن نحدث الزائرين عن أسرارنا الخاصة ، التى هى ملك خاص لنا لا ينبغى أن يبارح صدورنا .

وكثيرا ما نصادف فى حياتنا العادية ما يؤلمنا ، فمثل هذه المواقف تظهر شخصيتنا القوية ، تلك الشخصية التى تضع الهم فى زاوية بعيدة من زوايا النفس فتبدو للناس وهى أسعد وأهنأ ما يكون . فإذا كان من الواجب أن نبدو للناس سعداء هانئين ، أفليس من حق ضيوفنا علينا — وهم ما جاءوا لزيارتنا إلا ليظفروا بجلسة سعيدة هانئة — أن نجنبهم سماع آلامنا ومآسينا ؟ .

إن هذه الملاحظة يجب أن نضعها فى رأس ما يجب مراعاته من آداب الضيافة ، فهى من أهم ما أحب أن ألفت الأنظار إليه ، لأنها مشهورة عن السيدة المصرية فى ضيافتها . كما يجب إذا تحدثنا فى موضوع عام ، ألا نمثل بأنفسنا ، فتقول مثلا إحدى السيدات : " لو أن زوجى هو الذى فعل مثل ما فعل زوج فلانة، لحدث كذا وكذا " ، فهذا بلا شك يحدث فى نفس زوج المتحدثة — لو نما إليه الأمر — أثرا سيئا قد تقوم بسببه مشكلة كبيرة أو يحدث على الأقل سوء تفاهم بينهما ، لا مبعث له إلا سوء تصرف الزوجة وتجنبها مراعاة شعور زوجها فى الحديث .

وكذلك أحب أن أشير هنا إلى ملاحظة بسيطة كثيرا ما نأتيها بدون وعى منا ؛ فنحرج أنفسنا ونحرج ضيوفنا ، فقد يتصادف أن يحطم أحد الضيوف أو أحد الخدم إناء أو غير ذلك مما نأسف له فعلا ، ولكن من اللائق ألا نظهر الأسف أو الألم أمام ضيوفنا ؛ ونضعهم بذلك فى أشد المواقف حرجا ، فإذا حدث مثل هذا ، فلنحذر أن نظهر أسفنا أو ألمنا مراعاة لشعور ضيوفنا .

كما يجب أن تجتهد ربة البيت فى ايجاد حديث مسل يكون محورا للجلسة وموضوعا للسامرة والحديث . وكلما نقد الموضوع ، وكاد الصمت أن يخيم ، تخرج بهم ربة البيت إلى موضوع أكثر تسلية وأشد تشويقا وأطيب وقعا فى نفوس ضيوفها . وعند اختيار الحديث يلاحظ ألا نختار إلا المواضيع التى يتقبلها فهم الحاضرين بيسر وسهولة ، مستندين فى ذلك الى نوع ثقافتهم ، ومقدار ما حصلوا عليه من علم ومعرفة ؛ وقد يكون من المستحسن فى كل الأحوال اتخاذ الأحاديث العامة المفيدة السهلة الفهم موضوعا للسمر والحديث ، فقد يكون بين الحاضرين من هو فى مستوى ثقافى عال ، و بينهم كذلك من هم دونه ثقافة ومعرفة ، فمن العبث إذن أن نتكلم إلى المثقف ثقافة عالية فى فنون الشعر وضروب الأدب ، فلا ندع مجالا لمتوسطى الثقافة أو من هم دون ذلك للاشتراك فى الحديث ، فيكون ذلك سببا فى مضايقتهم وتجنبهم مجالسنا . وأرجو أن نبعد بأحاديثنا عن التعرض لسير البيوت والتكلم فى شئون الناس وأسرارهم ، فليس أدل على سوء الخلق من التحدث فى سير العائلات والنبش فى أسرار الأسر .

وأول شىء يجب أن يراعى فى إختيار مادة الحديث أن نبعد عن كل ما يمس عن قرب أو بعد أحد الموجودين ، فمن رأيى مثلا أنه ليس من المستحسن فى مثل هذه المجالس الحديث فى المسائل السياسية ، فكثيرا ما يكون ذلك سببا فى تعكير صفو الاجتماع . كذلك يجب عند تقديم أحد الحاضرين لآخر أن يراعى تعريفهما ببعضهما تعريفا كاملا بحيث لا يحدث من أحد الحاضرين ما يحرج غيره .

ومما يلفت الإنظار بشكل ملحوظ أننا إذا دعونا أصدقاءنا فإننا نصادف مواقف كثيرا ما نتألم لها ولو بيننا و بين أنفسنا ، فكثيرا ما يمضى الموعد المحدد والاصدقاء لا يحضرون ولا يعتذرون ، وقد يجيء بعضهم بعد الموعد بساعة أو ساعتين حيث يكون الوقت غير ملائم أو أن يجيء فى الموعد المحدد و بصحبته صديق له لا تعرفه أنت وقد لا تحب أن تعرفه .

وخلف الوعد بغير اعتذار سابق ، يدل على استهتار شنيع وتهاون بأبسط واجبات اللياقة وهو يدل على ناحية من نواحى الضعف الأخلاق عندنا ؛ يجب أن نحاربها بكل ما نملك .

والتأخر عن الموعد لغير عذر ، يدل كذلك على استهتار وتهاون ممقوتين . أما اصطحاب أصدقاء غرباء عن رب البيت ، فهذا يدل على فقدان للذوق ، وتجرد من اللياقة ، ففيه إحراج لصاحب البيت الذى هيأ لنفسه نخبة من الأصدقاء يرتاح لوجودهم ، فاذا فرض عليه شخص لم تسبق له معرفته ، فلا شك أنه سيجد نفسه فى موقف قد يبعثه على التبرم ولو بينه وبين نفسه . ويلجأ بعض الأصدقاء إلى طريقة أقل ما يقال فيها إنها تدعو إلى إحراج صاحب الدار ، وهى أن يكون مدعوا فيحضر فى موعده ، وما يكاد يجلس على مقعده حتى يهم واقفا معتذرا بأن معه صديقا تركه عند باب المنزل ، فيضطرك إلى دعوته إذ ليس من اللائق أن تترك ضيفك ينصرف لأن صديقا له ينتظره خارج الدار . ومن رأيى أنه فى مثل هـذا الموقف يجب على صاحب الدار أن يأذن للضيف فى الانصراف . حتى لا يتكرر منه هـذا الأمر ثانية . وليس أثقل من الصديق الذى يصادفك وأنت فى طريقك إلى منزلك ظهرا ، فيدعو نفسه إلى مائدتك قائلا لك إنه ليس بينك وبينه تكليف ، والموجود فى البيت يكفى !

ومن آداب الزيارة ألا نصطحب معنا أطفالنا أو نجلسهم بين ضيوفنا فنعرضهم لسماع مالا يجوز عرضه على أسماعهم ، أو أن نهيىء للأطفال — ومن طباعهم العبث بالأشياء — أن يحطموا إناء للأزهار مثلا أو تمثالا نعجب به ونؤثره .

* * *

وفى بعض الاجتماعات يتصادف وجود وسيلة من وسائل الطرب ، كأن تكون الضيافة لحفل أقيم لاحدى المناسبات ، وقد دعى مطرب أو مطربة لاحياء الحفل ، وإدخال البهجة على نفوس المدعوين فى تلك المناسبة ، وهناك نرى ظاهرة عجيبة فى نفوس بعض المدعوين عادة لايحسنون الاستماع للطربين ، فتراهم وقد تملكتهم خفة طغت على مظاهر الوقار بينهم ، فيقاطعون المطرب أو المطربة بأصوات الاستحسان العالية الخالية من الاحتشام والتى كثيرا ماتذهب بنشوة المستمع الرزين ، كما يلاحظ أيضا أن البعض يتـأوه تأوهات ممجوجة ، أو يعلق تعليقات نابية تخرج منه فى غير وعى فتخدش أسماع الموجودين ، وكثيرا مايكون بينهم سيدات يجب أن تنزه أسماعهن عن مثل تلك التأوهات والألفاظ النابية .

وهناك زيارة يحتمها الواجب وتفرضها المجاملات ، وهى زيارة الصديق المريض ، وهذه الزيارة وان كانت تحوز بغير موعد سابق الا أن هذه واجبات يحتم كذلك مراعاتها ،

فمثلا من اللائق أن نقصر أمد الزيارة بقدر الامكان حرصا على راحة المريض ، وتمكينا له من اتباع تعليمات الطبيب وطريقة العلاج ، وكذلك حرصا على أنفسنا من التعرض للعدوى .

ومفروض أيضا أن يصطحب الزائر باقة من الورد النضر الذى يبعث فى نفس المريض أملا وبهجة ، واذا كان لابأس على المريض من التحدث اليه ، فهنا أرى أن نحرص ونتدقق فى اختيار نوع الحديث ، فهو حديث كله أمل يسام وانعاش معنوى لنفس المريض ، وتفريج عما به من مضايقات سببها له المرض ، ولنحذر أن نتحدث اليه فى غير ذلك أو أن نطيل الحديث ، كأن نتحدث عن تضاعيف المرض وآلامه ، فيخبو الأمل الذى يعيش به بسوء اختيارنا لموضوع الحديث . وكثيرا مايكون التحدث مع المريض واضطراره بالتالى الى محادثة محدثه سببا فى تضاعف مرضه أو القضاء عليه .

* * *

هذه هى بعض — لا كل — الملاحظات التى كثيرا ماتلاحظها على غالبية ضيوفنا وعلى أنفسنا أيضا ، وهى تحتاج إلى الكثير من التدبر والعلاج ، حتى نتعود الظهور بمظهر اجتماعى مشرف . وقد سبق لى فى حديث سابق أن نبهت الى أن قيمة الأمم تستمد من المظهر الاجتماعى الذى يبدو فيه أفرادها ، والمظهر الاجتماعى هنا هو الأخلاق والآداب العامة .

ومراعاة هذه الآداب فى الغرب هى أول مايتعلمه الطفل قبل أن يتعلم العلم فى المدرسة ، فاذا تعاون البيت مع المدرسة فى ارشاد التلاميذ الى الآداب العامة والأخلاق الفاضلة ، استطعنا أن نحصل على مجتمع راق يكون فى الحقيقة المظهر الصادق الذى ينبىء عن قيمة الأمة ويضعها فى المكان اللائق بين أمم العالم .

وفق الله أمتنا العزيزة الى النهج القويم ، وهداها الى سبيل الأدب والخلق الكريم ، بما لها من الأسوة الحسنة فى جلالة الجالس على عرشها العظيم ، حضرة صاحب الجلالة مولانا "الفاروق" أعزه الله وأيد عرشه المكين .

زينب محمد حسين